صفحات فى الأدب الألمانى

لسنج LESSING

بقلم الدكتور على مظهر

ولد (جوتهولد إفرايم لسنج) فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٧٢٩ فى (كامنتز) الواقعة فى (الأوبرلاوزتز). وكان أبوه فيها رئيس الوعاظ. دخل مدرسة الأمراء بـ(ميسن) سنة ١٧٤١، فدرس اللغات القديمة وأظهر ميلاً للرياضيات، وكان أحب الكتاب إليه (تيوفراست) و(بلاوتوس) و(تيرنز) الرومانيين، فأخذ فى دراسة ما خلفوه من أثر بعزم وجد. وقال عنه مدير المدرسة: إن الدروس التى يتلقاها زملاؤه أصبحت لا تصلح له. وقال عنه (جوإدالبس): إنه فى كبير حاجة للمهماز ولا حاجة له بالعنان. ولكن يجب أن يقدم له العلف مضاعفاً. ثم ابتدأ الدراسة فى جامعة ليبتزج منذ سنة ١٧٤٦ ليدرس اللاهوت فيها، وتحقق بذلك رغبة والديه، ولكنه سرعان ما أبدله بالطب. ولم يقنع بذلك، بل بدأ يدرس اللغات والفلسفة وفنون الشعر، ومال إلى كتاب المآسى على وجه خاص؛ وكان قد عرف شيئاً منها بمطالعته للأديبين الرومانيين المذكورين سابقاً، وكان يصحب الممثلين بدلا من التردد على العلماء؛ وكان يقول فى ذلك: إن التردد على دور التمثيل يعلمه مئات من الأشياء الصغيرة الهامة التى يجب على شعراء المآسى معرفتها؛ ولا يمكن تحصيلها بالانقطاع إلى المحاضرات مطلقاً. وتعرف إلى صديقه (ميليوس) واتمنه على سره، وكان يشغل نفسه بالأدب؛ ولكنه كان ذا روح حائرة. فلما ذهب إلى برلين تبعه فيها. ولبث فيها أربعة شهور ذهب بعدها إلى فيتينبرج فى نوفمبر سنة ١٧٤٨. وما زال من ذلك الحين كثير النقلة من مكان لآخر، فتردد على برلين ثلاث مرات. وكان يكثر التردد على الفيلسوف اليهودى (موسوس مندلزون)، وعلى الوراق (فريدريش نيكولاى)، وعلى الشاعر (رملر). وكان يتردد فى تلك الأثناء على (فيتينبرج) إلى أن عين مدرساً للفنون الحرة. ثم عاد إلى ليبتزج، وهناك تعرف بكريستيان إيفالد فون كلايست وعقدت بينهما أواصر الصداقة؛ وأخيراً ذهب إلى (برزلاو) وعين كاتماً لأسرار القائد فون تونزين، ولما كان فى برلين سنة ١٧٦٧ دعى إلى هامبورج ليمد المسرح الذى كان هناك ليكون داراً للتمثيل الوطنى. ولكنهم رجعوا عن تنفيذ المشروع، فعين فى سنة ١٧٧٠ أميناً لمكتبة (فولفنبوتل) ولبث فى منصبه هذا حتى آب لربه، وقد رحل إلى إيطاليا فى ركاب أحد الأمراء رحلة طويلة وعاد إلى مقر عمله فيها بأرملة كان يكثر التردد على منزل زوجها الراحل لما كان فى هامبورج؛ وتم العرس سنة ١٧٧٦؛ ولكن لم يدم هناء العروسين طويلا، فقد حملت له طفلا مات ثانى يوم ولادته،

ثم ماتت أمه بعده ، بعد زواجها بسنتين،أو أقل قليلا ، فتملكه الحزن والأسى وجد فى عمله جداً متواصلا عله يسلو ولبث كذلك حتى قضى فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٧٨١ فى مدينة براونشفايج .

كان لسنج كبير الاطلاع كثير العلم محباً للبحث نهماً لا يشبع،وكان يجد سروره وسعادته فى العمل للوصول إلى المعرفة أكثر مما يجد هذا السرور فى العلم نفسه،ولم تمكنه الفرص إلا من الحصول على قليل من علم الجمال واللغة والفلسفة وتاريخ الأدب والآثار واللاهوت وغيرها ، ولبثت مجهوداته فى ذلك غير تامة ؛ ومن ذلك نشأت عدم طمأنينته وعدم كلاله من العمل الذى لازمه طول حياته ، وترتب على ذلك ابتعاده عن المراجع التى كانت تضيق له السبل فى البحث ، ولكنه كان إذا تحرك للعمل ولبحث موضوع من المواضيع فانه يبذل جهده ويجد فيه جداً خارقاً للعادة ، ويعمل فى حله خاطراً حاداً وروحاً متوقدة .

وكانت له قدرة على النقد لما اتصف به من حسن الفهم ورجاحة العقل،فكان يقلب بصره الشديد فى كل ما يظهر من منتجات العقول فى الأدب الألمانى ، وبذا حرر أدب لغته مما كان ينتابه أثر إعجاب بما هو أجنبى ؛ وجاهد لسنج حتى أسقط تلك المثل الفاسدة التى كانت تملق بها أمته وتتخذها نموذجاً تحكيه وتقلده ، فكان إذا نقد كان نقده تاماً واشتد فيه ، ولم يكن يتهاون فى نقد نفسه وتبيين معايبه ، فكان يفعل بنفسه ما يفعله مع الآخرين عند النقد،وتلحظ قدرته الفائقة فى ذلك فى ما يعرف من (كتب الأدب) التى نشرها بالاشتراك مع مندلزون ونيكولاى فى برلين ، بدأ بسنة ١٧٥٩ وفيها ترى نقده لكل ما ظهر من فنون الأدب فى عصره وتراه يصدر حكمه فيها حكماً غير هياب ولا وجل ، ولم يبق على عيب أو هفوة لأحد من أصحابه إلا أعلنه ،فتراه ينقد كلوبشتوك وفيلاند وكلايست وجلايم وغيرهم من أصدقائه ومن لم يكونوا أصدقاء له ، وكان من رأيه واعتقاده أن التمثيل الفرنسى لا يتفق وما للألمان من طرق فى التفكير ،وأن الألمان قادرون على ما هو خير من ذلك الأدب الفرنسى وتلك الرقة وذلك الحنان والحب عند الفرنسيين ، أما الذى يلتئم والطبع الألمانى فهو العظمة والضخامة والجلال كما يرى ذلك فى آثار شكسبير ومؤلفاته .

وترى لسنج ينشر (لوكون) فى سنة ١٧٦٦ ، والذى بعثه على تأليفها هو (فينكلمان)،وقد بدأ فيه بجماعة (اللوكون) وتكلم على ما خلفه مثالو الأغارقة (إجيزاندر) و (پوليدور) و (أتينودور) من الآثار ، وتراه يضع حداً فاصلا بين التصوير والشعر ، وتراه يرد على براتينجر ومن قبله سيمونيديس جملة قالوها : إن الشعر تصوير متكلم ، وإن التصوير شعر صامت ، وهى جملة دعت الشعراء إلى الوصف وجعلت المصورين يميلون إلى الرموز ، وقال لسنج إن لكل من الشعر والتصوير مجالا خاصاً به مبايناً للمجال الآخر مع ما لها من الصلة والنسب ، فمجال التصوير المكان ومجال الشعر تعاقب الصور والأزمان ، فترى الأجسام

مثلا بما لها من صفات ظاهرة هي قطع تصلح للتصوير ، والشعر مجال في أعمالها التي تأتيها ، وأن التصوير يمكنه أن ينقل الأعمال ويقلدها ، ولكنه ينقلها بواسطة الأجسام ؛ أما الشعر فانه يصف الأجسام ، ولكن عن طريق الأعمال ، وقد راعى هو مير ذلك القانون: فانه عند ما يجيء ذكر درع أشيل ترى الشاعر يصفه وهو قائم أمام أعيننا،وقد انتهى الصانع من عمله وشحذه ولم يصفه الشاعر وهو في يد الصانع وهو يسويه درعاً ويصقل أطرافه وأجزاءه ؛ وإذا ما أراد الشاعر أن يصف لنا أجامنون في لباسه وزينته ، فانه يرينا الملك ، وقد فرغ من لبسها قطعة قطعة ، وهو يصور لنا طريقة اللبس وكيفية تقلد ذلك الملك قطع أسلحته وما إليها من ملبس،هذا إذا ما أراد أن يصف لنا الملابس،وقد راعى جوته وشلر هذه القاعدة نفسها. وهناك فرق آخر وبون شاسع بين الشعر والتصوير ، فان الشعر لا يقتصر على وصف الجمال كما هو الحال في الفنون الأخرى،بل ترى الشاعر يصف وينقل لقرائه وسامعيه صوراً ومشاهد في الطبيعة وهي ذات نطاق واسع ودائرة غير محدودة الأطراف ، وترى الشاعر يصف الجمال والطبيعة مثلما يصف الفظاعة والكآبة ، وفي عرف لسنج أن هذا لا يجوز ولا يتأتى في الفنون الأخرى وفي التصوير .

وهذا رأي غريب من لسنج في عرفنا،فما الذي يمنع المصور والرسام أو المثال من أن يصور منظر فاجعة،أو أن ينقل إلى الرسام رسماً بشعاً يملك على النفس حواسها ويترك فيها أثراً مثل الذي يترك أثر شعر يصف بشاعة أو فظاعة أو كآبة،لقد شاهدنا بأعيننا في عديد المتاحف والأبهاء الفنية التي رأيناها حتى الآن ، وهي تحوي آلاف الألوف من القطع الفنية ، ولا تذكر أنها كانت كلها قاصرة على نقل الجمال والطبيعة فحسب ، وقد اعترض اللغوي (كلوتز) من مدينة (هالا) على ما جاء في (لوكون) من آراء وحمل عليها فرد عليه لسنج في خطابات أدب أسماها (كتب ذات مغزى قديم) ، ولكنها كانت ردوداً خشنة جملت لآراء ذلك الأستاذ السكوت جوابها ، ولم تقتصر هذه الخطابات على أن تكون آية من آيات الجدل، ولكنها كانت شهادة بسعة اطلاع لسنج وبغزارة علمه وبتمكينه من معرفة الفنون القديمة وقدرته الفائقة على معالجة المواضيع العلمية ، وفي سنة ١٧٥٩ ، نشر لسنج رسالاته على القصص الخرافية ، بين فيها أن لطبيعتها الداخلية علاقة متينة بما فيها من مغزى ، وعاد في سنة ١٧٧١ فنشر (ملاحظاته على تلك المغازي) .

وقد استرعى إصلاح التمثيل الألماني عنايته الكبرى فوجه إليه اهتمامه ، ولما كان عمره ثماني عشرة سنة وهو في ليبتزج كتب فكاهات منظومة سار فيها على طريقة جوتشد وهي على خلاف القطع الأخرى التي نظمت في أيام تلك ، فقد كانت تمتاز بخفة وقعها وملاءمة ذلك للطبيعة ، ومن تلك الفكاهات : العالم الصغير ، والعذراء المسنة ، واليهود ، والكنز وغيرها

أخرى، والقطعة الأخيرة لا قيد فيها، قد نظمها حسب طريقة (بلاوتوس)، وكان يحذو حذوه حينئذاك، وكان لسنج بعدها خير قطعه الفكاهية: ثم إنه أعقب الفكاهات بالمآسي واتبع في كتابتها طريقة جلرت وكاويشتوك الحماسية، نذكر منها فاجعة (مس شاراسامبسون) و (فيلوتوس) وتراه في فاجعته الأولى ينأى بكليته عن الذوق الفرنسي وعوضاً عن نظمها في بحور (اسكندرية) صلبة معروفة بصلابتها وشدتها، فانه كتبها نثراً وتخير لها جواً انجليزيا واستعان في مادتها برواية (كلاريسا) التي كتبها ريتشاردسون الكاتب الانجليزي المعروف وهي ذات موضوع حي أخاذ، وقد أجاد فيها تصوير الحياة.

أما في فاجعته الثانية (فيلوتوس) فقد جعلها في فصل واحد موضوعها سهل، ولكنها اشتملت على محاورات متينة يشيد فيها لسنج بذكر الوطن وحبه والميل إليه.

وآية لسنج الخالدة رواية تمثيلية فكاهية أسماها (مينافون بارنهلم) أو (حظ الجنود) نشرها سنة ١٧٦٧، وإليك ملخصها:

جاء الضابط البروسي (البكباشي فون تلهايم) إلى سكسونيا أثناء حرب السبع سنوات ليجمع إعانات وضرائب حربية من وسط سكسوني معدم، ولما كانت الظروف لا تسمح بذلك إلا إذا أريد خراب البلد وإهلاك الزرع والنسل، رأى ذلك الضابط أن يقرضهم تلك الضريبة الحربية من ماله الخاص، فكان عمله هذا سبباً في ميل آنسة سكسونية ثرية إليه، وكانت تدعى (مينافون بارنهلم) فعقد خطبته عليها وفرقت الحرب بينهما وكان قد أصيب في خلالها الضابط بعدة جروح وعجز عن تحريك الذراع اليمنى، ولشد ما كان يؤلمه الوداع بعد أن عقد الصلح؛ وأشد من هذا ما كان يحوم حوله من الريب والشكوك في سلوكه إذ أشيع عنه أنه كان يرتشي من السكسونيين، وأقام الضابط في إحدى فنادق برلين الصغيرة بعد أن كان يعيش معيشة السراة رخي الحال، واشتد به الفقر والحاجة حتى اضطر أن يرهن آخر ما كان لك وهو الخاتم الذي تقبله من حبيبته، حدث كل هذا وهي لا تعلم من نبأه شيئاً، ولما طال على نأيهما الزمن ولم تردها أخباره عزمت على البحث عنه، فسافرت من ضياعها إلى حاضرة بروسيا ومن قبيل الصدف أقامت في نفس النزل الذي كان يقيم فيه خطيبها وقدتاً كدت من وجوده وتبينت بؤسه وضيقه لما علمت قصة الخاتم المرهون، وقد سرها التقاؤها بخطيبها، وقد عهدت فيه طهارة الأعراق ودماثة الأخلاق، ورغبت أن تكون رفيقه الأمين في حال بؤسه، إلا أنه كان بريأ بعزته ورجولته أن يلازمها وقد أصبح فقيراً معدماً عاجزاً عن الحركة قد ابتلي في جسمه وفي شرفه بما تعلم، ولم يرغب أن يجعلها تشاطره سوء طالعه وما قدر له من شقاء، فرأت مينا أن تتغلب على خطيبها الأبي بالحيلة والدهاء، وقد تم لها ما أرادت ثم قضت المحكمة ببراءة الضابط مما نسب إليه واتهم به ظلما وعدوانا، بل إنه استلم مكتوباً بخط الملك نفسه يرجع كل ما كان لتلهايم من شرف إليه ونشر ذلك بين الناس ليعرفوه، كما أنه تيسر لوصيفة مينا المسماة بالآنسة (فرانزسكا)

أن تزف إلى عريف الجند فرنز وقد عدل عن فكرته الخيالية بأن يكون فى ركاب أحد الأمراء فى رحلته إلى بلاد إيران ، وهناك شخصيات أخرى عديدة فى تلك الرواية التمثيلية نضرب عن ذكرها صفحا خشية التطويل الآن؛ إلا أننا نرى من واجبنا أن نبين للقارئ مقصد الشاعر من كتابة هذه الفكاهة ؛ وهو أنه رغب فى تلطيف الحقد الذى أوجدته حرب السبع سنوات بين القبائل والمقاطعات الألمانية ، تلك الحرب التى قامت بين سكسونيا وبروسيا ، وكان منها ما يكون إثر كل الحروب بين القبائل والشعوب ؛ فترى الشاعر يدعو إلى الصلح والوئام بين الأفراد والجماعات ويغرس فى القلوب حب الوطن الألمانى كله ؛ ولهذا كانت هذه الرواية التمثيلية الأولى من نوعها فى الوطنيـة التى وضعت للتمثيل على المسرح ، وقد جاء من بعده كثيرون يريدون أن يأتوا بمثلها ، وأن يكتبوا روايات تمثيلية على الجنود وأفعالها .

ولما نجح لسنج فى خطوته الأولى الهامة فى كتابة مأساة وطنية سعى فى إيجاد مسارح وطنية فى جهات متعددة؛ ومن الأسف أن مسرح ليبزج الذى يعقد لسنج عليه الآمال أضحى غير ذى خطر وفقد أهميته التى كانت له على حين سعى الناس إلى إصلاح حال دور التمثيل فى (فين) و (همبورج) ؛ فلما كانت سنة ١٧٦٧ دعى لسنج ليعضد إنشاء مسرح ألمانى وطنى فى هامبورج على أن يكون شاعر دار التمثيل فرفض هذا المنصب ، فعرض عليه منصب النقاد المسرحى فقبل أن يكونه ، وكانت ثمرة ذلك العهـد (١٧٦٧ حتى ١٧٦٩) هو ما يعرفه بتأليف الروايات الشعرية الهامبورجية ونقده أكثر من اثنتين وخمسين رواية تمثيلية ثلثاها تقريبا مترجم عن الفرنسية ، وقد مثل ذلك المسرح الوطنى بهامبورج ؛ إلا أن غاية لسنج من دار التمثيل هناك لم تحقق ولم تصدق آماله فيها التى كان يعلقها على إنشائها وتأسيسها؛ فقد كان الممثلون كثيرى الاحساس رقيق الشعور يتأثرون بسرعة كما أن الجمهور لم يكن ليصدر حكما ولا يبدى رأيا ، وكان ختام أمره من ذلك المسرح ونهايته سنة ؛ إلا أن عمله هناك لم يخل من نتيجة ، بل كان ذا ثمر ، فقد حدث أن عرفت أصول المأساة ووضعت حدودها ، ولم يك قد سعى إلى ذلك من قبل ؛ وقد بين لسنج بأن تلك المثل الفرنسيـة التى كانوا يحتذونها من قبل فى ألمانيا مثل كورنى وفولتير وديدروا وغيرهم لا تصلح أن تكون قاعدة للمأساة الألمانية ، بل إنه قال إنها تضاد الطرق الفنية ؛ وأن الفرنسيين يزعمون بأن تمثيلهم على غرار المآسى القديمة وأنه يتفق وتعاليم ارسطاطاليس وقواعده التى وضـعها ، وقال لسنج وهو الوحيد الذى يقول ما تنقله عنه: إن نقاد الفن عند الفرنسيين قد فهموا كتاب الشعر (Poetik) من تأليف أرسـطو فهما معكوسا خاطئا ، وقد بين أن كتاب المآسى الفرنسية قد راعوا وحدة العمل فى مؤلفاتهم . أما وحدتا الزمان والمكان فقد روعيا عند ما كان لا مندوحة من ذلك بأن كانت وحدة العمل توجب ذلك ، وقد أشار فى نقده لميروب من تأليف فولتير إلى

البعد الشاسع بين المأساة الاغريقية وأختها الفرنسية وبعد الأولى عن الثانية بعد السماء عن الأرض ، كما أنه اشتد فى نقد كورنى وسلق الاثنين بألسنة حداد ، وقال يجب على الألمان أن يتخذوا شكسبير قدوة ومثالا يحتذونه إلى جانب شعراء الاغريق .

وفى سنة (١٧٧١ — ١٧٧٢) كتب فاجعة (أميليا جالوتى) وكان قد فكر فى وضعها قبل ذلك بسنين (١٧٥٧) ، والذى حركه لكتابتها ما قرأه فى فاجعة اسبانية اسمها (فرجينيا) من قلم (أوجوستينوده مونتيانو) ، إلا أنه ألبسها ثوب الجدة بدافع أنه أخذ مادتها من التاريخ الرومانى ، فجعل ذلك إيطاليا واتخذ مشاهدها من بلاط أمير إيطالى صغير ، وقد أجاد فيها وصف الأشخاص البارزة فيها كل على حدة بكيفية تستدعى الاعجاب .

ولما كان لسنج أمينا لدار كتب فولفنبوتل نشر عدة مقالات فى (التاريخ والأدب من كنوز دار الكتب) ، وقام بينه وبين أحد كبار الوعاظ المسمى جوتزه جدال دينى خاص بالديانة المسيحية واحتدت المناقشات حتى اضطرت حكومة براونشفايج أن تتداخل وأن تحظر على لسنج المضى فيها ، فدعاه ذلك إلى أن يبث معتقداته الدينية فى مأساة كتبها سنة (١٧٧٨— ١٧٧٩) ودعاها (ناتان العاقل) ، وجعل حوادثها تقع أيام صلاح الدين الأيوبى لما ذهب إلى بيت المقدس ، وأسبح الاسلام إلى جانب الديانة النصرانية واليهودية هناك ، ومع أنه اتخذ لحوادثها زمن الحروب الصليبية إلا أن لآرائه فى الانسانية وحرية المعتقدات ما لو أمكن تحقيقه ، لكان خير عصر عرفه البشر .

وسعى لسنج أن يكون قوام ولب ما يكتب صادقا واضحا ، ولقد خدم بذلك اللغة خدمة جليلة فى هذا الصدد ومهد السبيل ، وأوجد نثراً ألمانيا خاليا من شائبة تشوبه ، فترى أسلوبه الكتابى يحوى كل مميزات الأسلوب الفنى ، ولن يصادفك فيه أثناء مطالعته جمجمة وإزياد غير ذى وضوح لا خير فيه ، ولن تجد فيه تلك النعومة ، ولا تلك الشقشقة الفارغة والمبالغة والاغراق ، ولا تلك التعابير المعوجة التى لا تؤدى الغرض بسهولة ، بل كان يتخير لكتابته دائما أسهل الألفاظ وأكثرها ملاءمة ، كما كان يتخير التعابير المؤدية للمعنى الذى يقصد كبيرة الوقع فى النفوس ، وكان موفقا فى الاتيان بأمثلة وصور وتشابيه صحيحة بينة توضح ما يقول وما تمى به الخواطر والأفكار .

وممن شابهه روحا عدا موسوس مندلزون الذى سبقت الاشارة إليه المدعو (توماس إبت) المولود سنة ١٧٣٨ فى مدينة أولم ، والمتوفى سنة ١٧٦٦ ، وقد نشر رسالة أسماها (الموت فى سبيل الوطن) ، عبر فيها عما يكنه فؤاده وقلبه من حب لبلاده ، وقد نشر تلك الرسالة سنة ١٧٦١ ، كما أنه نشر أخرى عنوانها الجزاء سنة ١٧٦٣ ، وكان يقصد إلى رفع المستوى الخلق والعقلى للشعب . ٦

على مظهر